

تذكر الموت

أخى :

إن تذكر الموت هو السوط الذى يجب أن يضرب الإنسان به نفسه ؛ فمن لم يؤدبها بهذا السوط لا يبلغ مراداً ، ولا يصلح شأنًا . ولا يثبت حالاً ولا مقاماً . فالموت ضد الحياة ... والحياة ضد الموت والصراع بينهما يتولد من الشعور الحقيقى والإحساس العميق بالحياة البعدية ومعانيها . فالنفس رغم تعلقها بالحياة الدنيا تشرئب وتتطلع إلى الحياة الأخروية ومستقبلها فيها . وذلك بمقتضى الفطرة والإلهام الربانى . ومن هنا نعلم تأثر المؤمن بذكر الموت وما بعده ، وقد علمت أخى أن تذكر الموت وما بعده فرض علينا فى كل وقت كى يحملنا على الاستعداد له ولو بقدر يكف النفس بعض الشيء ، ويردها عن غيها وعدوانها . فوالله الذى لا إله إلا هو : إن تذكر الموت أردع للنفس وأزجر لها من العبادات والأعمال الفارغة من التذكر . فهى ربما تغتر بأعمالها ، وتفتن بعبادتها إذا لم يكن هناك تذكر للموت وما بعده . وتذكر الموت يهز من كيأن النفس ، ويهذ من غرورها وفجورها ، ويحملها على الصدق والإخلاص فى أعمالها . والمؤمن السالك الصادق الإيمان بربه واليوم الآخر لا يدع هذا السوط من يده ، وإن وضعه فى نهاره لا يضعه فى ليله حين يأوى إلى فراشه لما يعلم ويوقن من الصلة بين النوم والموت . ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ .

وقد علمت أن المؤمن الذى يعيش فى عالم الغيب لا ينفك عن ذكر الموت بقلبه وروحه . ولذا فحياته فى هذه الدنيا كحياة الضيف أينما نزل لأن الضيف مهما بلغت به وسائل الراحة . ومهما كان مظهره من الرضا والاستقرار فالشعور القلبي بأنه عن قريب مرتحل لا يفارقه ولا يزايله فهو أبداً قلق لعلمه ويقينه أن هذا

غير مقره وغير محل سكنه وإقامته . ولذلك يرضى ويتقنع بما تيسر له من طعام - طعامه ما حضر ، ولباسه ما وجد - وهكذا أخى شعور المؤمن نحو الحياة . وقد اتضح من هذا معني حديث الرسول ﷺ : « كونوا في الدنيا أضيافاً ، واتخذوا المساجد بيوتاً » أو كما قال .

أخى :

إن الذى يبلغ بالمؤمن هذ الدرجة من الشعور والإحساس هو التذكر الدائم للموت ، وتذكر المؤمن للموت لا يجلبه إليه قبل أوانه ، ولا يساق إليه قبل حلول أجله . إنما التذكر يقوى العزيمة ، ويضاعف الهمة ، ويقصر الأمل في حب الدنيا ، ويمنع التسويف ، ويدفع إلى الطاعات والعبادات وصالح الأعمال . ولكن هيهات هيهات . مادامت النفس متعلقة بالدنيا منكبة عليها . أعاذنا الله وإياكم من شرورها وأضرارها .

أخى :

إذا سأل سائل من عباد الله كيف الخلاص ؟ وكيف البلوغ لهذا المقام ؟ الجواب : السماع ثم التصديق ثم التحقيق ثم التدقيق . وهذا الدين سماع ثم تصديق ثم تحقيق . ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ وإن الاشتغال بذكر الله ليلاً ونهاراً يقرب العبد من ربه . ومتى ما حصل القرب حصل التحقيق شيئاً فشيئاً .

أخى :

لتقف معي قليلاً لتستشف معي قول الرسول ﷺ : « كونوا في الدنيا أضيافاً ... » الحديث يعنى . اجعلوا إقامتكم في الدنيا كما يجعلها الضيف حين ينزل فإنه عن قريب مرتحل . والدنيا مأوى مؤقت ، ومنزل محدود ، طال البقاء أم قصر فإن مصير الإنسان الارتحال ، ونهايته الانتقال مهما بلغ فيها من حال ، واعتلى من مقام واستقرار . ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴾ فوالله لا يفلح ولا ينجح من لم ينظر إليها بهذا المعنى . ومعنى اتخذوا المساجد بيوتاً - لتكن ضيافته في الدنيا وإقامته في المسجد والسكن القلبي فيه . لماذا لأن

المسجد وإن كان في الأرض إلا أنه جزء من السماء . فمن اتخذته بيتاً يأوى إليه فهو في السماء وإن كان في الأرض . وهو ضيف الله في بيته لا ضيف الدنيا ، ولا ضيف أحد من الخلق حيث المسجد ملك الله في الأرض ، وبيته الذي يأوى إليه عباده المؤمنون . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَغْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ والتعمير لها بطاعة الله وعبادته وأعمال الآخرة التي عليها الثواب والنعيم . وليس التعمير بالطلاء والبناء والفرش . وإن كان ذلك داخلاً في صالح الأعمال التي يثيب الله عليها عباده - واتخذوا المساجد بيوتاً - أى تأوون إليها كما تأوون إلى بيوتكم فرحين مستبشرين مستأنسين - لا قلقين متعجلين - فرحين مستبشرين حيث المنزل محل الراحة للإنسان موضع حظوظه وشهواته . واتخذوا المساجد بيوتاً - تعمرونها كما تعمرون بيوتكم في الدنيا بما تحتاجون إليه من أسباب الحياة فيها فكذلك المسجد بيتك الأخرى . فعمره بما أنت في حاجة إليه في سكنك الأخرى الذي لا بد منه طال عمرك أم قصر . وعودوا قلوبكم الرقة في المسجد . أى اذكروا الله فيه ذكراً كثيراً يرقق الله به قلوبكم . فإن الذكر في المسجد له قدره وإشراقه على النفس بخلوص النية بمقتضى السعى إليه باعتباره بيت الله المنسوب إليه . ولما للمسجد من الصلة بالسماء . ولا تختلف بكم الأهواء حينما تخرجون من المسجد إلى الدنيا تبنون ما لا تعمرون وتؤملون ما لا تدركون .

* * * *